قدرة الصوت على رسم المعنى
مناظرة إبراهيم الخليل للنمروذ نموذجا

أ/ مزاري زينب
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

الملخّــص:

يعتبر النص القرآني مجالا خصبا للدراسة الصوتية التطبيقية؛ وذلك لتعدد قراءته وخاصة في تنوع الأداء ونظام الفواصل وغيرها ....

ودراسة الآية 257 من سورة البقرة ركزت فيها على الأداء الصوتي وقدرته على إجلاء المعني وإيضاحه وإفحام الخصم .

فموضوع النص مناظرة بين إبراهيم والنمرود مدعي الألوهية.

Résumé:

Le texte du Quran peut être considéré comme un bon exemple même idéal pour une telle application d'une éventuelle étude phonétique En effet, le texte du Quran offre la possibilité de différentes lectures et par conséquent prononciation pour une même lettre (الحرف) ceci est dû à (الفواصل)..

En étudiant L'ayat 257 sorat el bakara ; j'ai essayé de montrer l'importance de la phonétique et l'aptitude du son à apparaître la signification de la lecture et bien éclaircir la compréhension du texte .

L'objet du texte est un dialogue Entre le prophète IBRAHAM et son opposé l'athée dit NEMROUD .

مقدمة:

خلق الله سبحانه وتعالى الناس بعقول ومدارك متباينة وألسنة وتصورات مختلفة، وفتر البشر على العيش جماعات وأمما. وإن مجال الحياة واسع ومصالح الناس تتضارب، فيختلف الناس فيما بينهم لأن كلا منهم يريد نفسه ومصالحه.

وإن اعمار الكون وقيام الحياة لا يتحققان لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء قال تعالى ّ((ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)) هود 118.

إن الاختلاف يؤدي إلى النزاع والتفكك وقد جاء وحي السماء إلى البشر ينشئ بينهم رباطا يوصل بعضهم ببعض ويخفف من خدة النزاع ويمد الطريق الأمثل لفك الخصومات . فكان الحوار وسيلة القرآن في دعوته ليكون وسيلة حياتنا قال تعالى ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)) النحل 125

وقد ارتقت كلمة الحوار في مجال الخصومات واتخذت لها أشكالا أخرى لأن الحوار هو الصورة الأولى للكلام بين اثنين. ولكن عند وجود نزاع حقيقي حول أمر ما بين طرفين كلٌ يشد إلى جهته فنسمي ذلك مناظرة. وفي هذه الدراسة سينصب الحديث حول مناظرة إبراهيم عليه السلام لمدعي الأولوهية نمرود قال تعالى ((**ألم تر إلى الذي حآجّ إبراهيم في ربّه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت قال أنآ أحيي وأميت قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)) البقرة 257.- رواية حفص -**

ويعتبر النص القرآني مجالا خصبا للدراسة الصوتية التطبيقية، وذلك لتعدد قراءته وبخاصة تنوع الأداء ونظام الفواصل وغيرها .

كل هذه الإمكانيات خليقة بالإحصاء والوصف والتحليل العلمي وكشف موافقتها لظلال الكلمات ومعانيها، بحيث إن التأثيرات الصوتية لا تظهر إلا إذا عاضدتها العوامل الدلالية، ولذا يجب الكشف عن الطاقة التعبيرية لنص المناظرة برصد سماتها الإيقاعية وخصائصها الصوتية لأنها هي قوام الملامح الأسلوبية للنص.

وتعتمد الدراسة الصوتية على تناول خصائص حروف النص، من حيث شدتها ورخاوتها وجهرها وهمسها وتفخيمها وترقيقها، لذا يجب الانطلاق من الأسس الثابتة لمفاهيم الصوتيات الأولية، التي بدونها لا يمكن تمثل أي شيء من اللسانيات الحالية تمثلا حقيقيا، فالوصف الشامل للعناصر الصوتية المكونة للنص هو المنفذ لمعرفة معدلات تكرار الأصوات ذات التأثير الأسلوبي[1]، وذلك لما يتمتع به النغم الصوتي الذي يحدث الحرف من تأثير على المعنى .

" وعلاقة ذلك النغم الصوتي بالتيار الشعوري والنفسي في مسار النص، ومن المعروف أن لكل حرف مخرجا صوتيا ولكل حرف صفات، وبين مخارج الحروف وصفاتها وبين دلالة الكلمة علاقة شعورية وفنية وبذلك يتجسد التوافق النغمي والانسجام اللفظي"[2] في أداء المعنى ورسم الصورة للنص " وقد أدى ازدهار علم النفس إلى إدراك الصلة القائمة بين الإحساس وبين الفكر وبين الألفاظ، كما أدى علم الصوت إلى إدراك وظيفة الصوت في التعبير"[3]، ولو أن هذا الكلام لا يتوافق مع كل الحروف والكلمات فحرف (الراء) في الحجر غيرها في الشجر غيرها في النهر .

وتبرز في الدراسة الصوتية الفاصلة القرآنية وما تتمتع به من إيقاع ومن جمال وما ترسمه بموسيقاها من إعطاء صورة متكاملة عن المعنى جمعا لشتات أو تلخيصا لمعنى أو إيضاحا لنتيجة .

وتتعانق الدراسة الصوتية بدراسة الصوت الواحد والمقطع والفاصلة، وذلك قصد إدراك دلالات النص العميقة ولا يتحقق هذا إلا بالاعتماد على المنهج الإحصائي لما فيه من التحديد الكمي القادر على تعيين الأصوات المهيمنة أسلوبيا.

فالعمل ينصب على تحديد النظام الصوتي للنص ضمن الخطوات التالية :

1- رصد الأصوات : وذلك بإحصاء الأصوات ذات التأثير في مسار المناظرة الصوت المجهور، الانفجاري، الاحتكاكي، المفخم والمرقق .

الصوت الانفجاري :

إن الأصوات الانفجارية هي ((ء، ق، ك، ج، ظ، د، ت، ب))بعد الإحصاء وجد أنّ الأصوات الانفجارية بلغ عدد انتشارها في النص المدروس 38 مرة، وهي كمية صوتية معتبرة في نص يتكون من 160 صوتا والصوت الانفجاري يستدعي جهدا صوتيا عاليا ونفسا طويلا لنطقه، حيث يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضوع من المواضيع، وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراحه فجأة فيندفع محدثا صوتا انفجاريا[4] وما يبرر هذا التوتر الكبير للأصوات الانفجارية أن موضوع المناظرة يستوجب هذه الأصوات للرد على دعوى نمروذ . فالنص مناظرة بين مؤمن له اليقين أن الله يحيي ويميت والآخر طغى وتجبر وادعى أنه يحيي ويميت، وهذه الدعوى لا يرضاها إبراهيم عليه السلام بأي حال من الأحوال لذلك سيفجر كل طاقاته من أجل دحضه ودحض ادعائه .

إن هذه النوعية من المادة الصوتية مناسبة لهذا النص الذي يتطلب نوعا من حبس الصوت، ووقفه ثم تفجيره. ويبين الجدول أن صوت الهمزة طغى على بقية الأصوات الانفجارية حيث بلغ 14 مرة في مقابل 38 مرة .

إن النص مشحون بقوة انفجارية وحضور الهمزة بهذه الكثافة لمناسباتها لموضوع المناظرة، ويحدث صوت الهمزة " بأن تسد الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين، وذلك بانطباق الوترين انطباقا تاما فلا يسمح للهواء بالنفاذ من الحنجرة يضغط الهواء فيما دون الحنجرة ثم ينفرج الوتران فينفذ الهواء من بينهما فجأة محدثا صوتا انفجاريا ".

الصوت الاحتكاكي :

إن الأصوات الاحتكاكية هي ((ف، ث، ذ، ظ، س، ز، ص، ش، خ، غ، ح، ع، هـ))، تشير الدراسة إلى أن النظام الحرفي جاء حاملا 26 صوتا احتكاكيا إذ " تتكون الصوامت الاحتكاكية بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع، بحيث يحدث الهواء في خروجه احتكاكا مسموعا "[5].

وقد كانت الهاء من بين 26 صوتا احتكاكيا الأكثر ورودا حيث بلغت 11 مرة .

الصوت المجهور :

إن الأصوات المجهورة هي ((ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ظ، ع، غ، ل، م، ن)) وطغت الأصوات المجهورة على الأصوات المهموسة، حيث تواترت صفة الجهر 61 مرة في مقابل 34 مرة لصفة الهمس، كما أن للام حظّاً وافراً من هذا الانتشار، وقد يكون في هذا التفاوت البين بين هذه الأصوات ما يوافق موضوع المناظر ونظرا لطبيعة التصادم بين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ونمروذ، حيث يستلزم مقام المقاومة والدعوة هذا الجهر والشدة .

الصوت المفخم والصوت المرقق :

يبين الإحصاء أن الأصوات غلبت على النص حيث بلغت 28 صوتا من 31 صوتا، وبلغت الأصوات المرققة 3 أصوات، وهذا التفاوت الكبير نلمح من خلاله استخداما أسلوبيا مقصودا، إذ النص قوتان متجاذبتان كل يرغب في فرض ما يراه؛ ذلك كافر مدع للألوهية، وهذا نبيّ يعلم علم اليقين أنّ الذي يحيي ويميت هو الذي يأتي بالشمس من المشرق إلى المغرب، فطبيعة التصادم بين هاتين القناعتين فرضت الصراع وأبرزت الأصوات المفخمة للدلالة على أن في النص قوة وانفعالا .

وعموما فإن الخصائص الصوتية للنظام الحرفي للنص المدروس تشير إلى :

قوة حضور الأصوات الانفجارية والمجهورة وذلك لطبيعة النص التصادمية، يقول ابن جني : " وطبيعي أن تختلف أحوال الحروف لأن باختلافها يحسن التأليف "[6]، فالنظام الثنائي في النص يجسد المخالفة بين الأصوات؛ وذلك أن تصادم الأصوات وتدافعها يولد قيمة خلافية هي منشأ الاختلاف الدلالي والمعنوي .

وهذا ينفي نفيا قاطعا أن يكون بين تصادم هذه الأصوات وتباينها ما يدعو إلى التناقض حيث تداخل الحروف وتلاحقها وتتابعها من شأنه أن يختلف انسجاما وتنسيقا بينها، تعدد الصوائت وتنوعها ولعل في هذا التنوع ما يبرر تلون الموسيقى في النص.

الصوائت :

لقد غلب استعمال الصوائت المفتوحة وذلك لوضوح الفتحة وخفتها " وهي صوت لين قصير تسمع بوضوح فالفتحة أوضح من الضمة والكسرة "[7]، وفي النص صراع

وتقارع، فكل يعمل على إسماع صوته وايصال دليله " يقصد النص القرآني في استخدامه لبعض الأصوات وتكرارها إلى تصويت بعض المواقف الإنسانية وتشخيصها تشخيصا يشعرنا بما تحمله هذه الأصوات من طاقات نغمية وشحنات ايقاعية بمقدورها إضفاء بعض الأجواء النفسية المؤثرة والضلال الموحية على المعنى[8] ولعل من أكثر الأصوات بروزا صوت اللام إذ تواتر ستّ عشرة (16) مرة .

وحرف اللام يحدث عندما "يعتمد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا بحيث تنشأ عقبه في وسط الفم مع ترك منفذ للهواء عن طريق الأنف يتذبذب الوتران الصوتيان[9]، وإن كل اللامات التي وردت كانت مفخمة " فيرتفع أقصى اللسان نحو(الحنك اللين) يساوي أقصى الحنك، فيكون له رنين شبيه برنين الصوائت الخلفية مثل ألف(قال)"[10].

عدد تواتره الصوت	الفتحة القصيرة	الضمة القصيرة	الكسرة القصيرة
الأصوات الانفجارية	13	5	15
الأصوات الاحتكاكية	7	3	9
الأصوات المهموسة	15	5	9
الأصوات المهجورة	22	4	16
المجموع	57	17	49

ومن أبرز الأصوات الانفجارية تصويرا وتشخيصا للموقف صوت الهمزة في قراءة حفص عن عاصم في قوله تعالى (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) – البقرة 257– فصوت الهمزة في هذا الجزء من آية له أهمية بالغة فقد حمل كل قوى التحدي من إبراهيم عليه السلام تجاه نمروذ وإقامة الحجة عليه .

إن كثيرا من المفسرين يقولون بالانتقال أي أن إبراهيم عليه السلام انتقل من دليل الإحياء والإماتة إلى ظاهرة كونية لا يقدر عليها نمروذ، فهو لا يستطيع أن يدعي أنه يأتي الشمس من المغرب على عكس ما هي عليه، وإن السامع لترتيل هذه الآية يلاحظ أن في النص انتقالا صوتيا، وبالتقطيع الصوتي للنص يدرك تمام الإدراك هذا الانتقال، فبعد المدود التي غلبت على الجزء الأول من النص والهدوء يأتي الجزء الثاني بهذه الهمزات المتقاربة (فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) .

ويصدر صوت الهمزة بعد حبسة بين الوترين الصوتيين ثم ينفجر الصوت بنفاذ الهواء . فقد عبرت هذه الهمزة حقيقة عن حبسة حدثت عند إبراهيم عليه السلام كان عليه

أن يوقف هذه الدعوى الحمقاء، وهذا الافتراء العظيم وعليه أن يكسر جبروت نمروذ ويرده إلى واقعه الحقيقي، فما هو إلا واحد من البشر يسري عليه ما يسري على كل مخلوق، ثم يأتي الانفجار، إنفجار الدليل الأكبر والأوسع والأعظم .

وإبراهيم عليه السلام يوقن أن الذي يحيي ويميت هو الذي يأتي بالشمس من المشرق إلى المغرب، فالانتقال هذا الذي حدث في الدليل، ليس لأن الأول لم يف بالغرض، لكن المغالطات التي حبكها نمروذ أمام هذا الحشد الكبير من السامعين، إبراهيم عليه السلام يعلم أنه أمام عقلية لا ينفع معها التوقف عند دليل الإحياء والإماتة ولذلك عليه أن يتوقف ويحبس هذا الدليل جانبا للمجيء، بما يبهت هذا الطاغية فيفجر له جانبا آخر لم يلق له نمروذ بالا من قبل إنه دليل كوني معروض للخلق وحقيقة لا تتغير ما دام على الأرض حياة (فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فانفجار الأنفاس وانفجار الدليل بهت نمروذ (فبهت الذي كفر) .

لقد أوقعت الهمزة (إ – أ – أ) الانتقال " تنفسيا لخناقه وإرسالا لعنان المناظرة[11] .

إن طبيعة الموقف وحقيقته، إفحام وإسكات إبهات استدعت هذا الموقف لصوت الهمزة ليأتي صوت الانفجار .

إن صوت الهمزة في (فإن – يأتي – فأت) صور نفسية إبراهيم عليه السلام وأوحى بالطاقة الجديدة التي أثارتها دعوى نمروذ فبعد أن كان مطمئنا هادئا (ربي الذي يحيي ويميت) في يقين وثبات، بهذه الامتدادات، وها الهدوء في السياق تراه يستجمع قواه للمجيء بما يميت نمروذ .

ومن الأصوات التي كان لها حظ الاستعمال والظهور في نص المناظرة من الصوامت المكررة (الراء) حيث بلغ تسع مرات في النص " ويتكون صوت الراء بأن تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة تتابعها سريعا، ومن هنا كانت تسمية هذا الصوت بالمكرر، وهذه الطرقات لا تحدثها حركة عضلية واعية من طرف اللسان فالذي يحدثه

الوتران الصوتيان هو تلك النغمة عند نطق الراء "[12]، ولعل في تتابع الراء ما يصور تتابع وتلاحق اقتران الأدلة على وحدانية الله لدى إبراهيم عليه السلام .

إن مقام المناظرة استدعى حروفا بعينها دون أخرى ومادة الصوت " هي مظهر الانفعال النفسي وإن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا وشدة وبما يهيئ من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصوله "[13].

إن الدراسة وصفية والنص محط اهتمام، وقد أدى البناء الصوتي كل الغرض وأوصل الهدف من هذه المناظرة ورسم لنا معالمها مثل ما سنبين فيما يأتي ولقد كان لحضور الهمزة دور فعال في تحقيق ما أسماه العلماء بالانتقال والسؤال : هل يستطيع المتكلم أن يأتي بألفاظ أخرى خالية من الهمزة ويؤدي المعنى نفسه ؟ من مثل (يجيء، يخرج ويدخل، يضيء) (فان الله يجيء أو يخرج الشمس من المشرق فأخرجها أو جيء بها من المغرب) ؟ .

لعل أخص خصيصة في صوت الهمزة أنها صوت انفجاري، وموضع إبراهيم عليه السلام يحتاج إلى هذه النوعية من المادة الصوتية، فالأصوات العربية تحتوي على ثمانية أصوات انفجارية حسب قول ابن جني في سر صناعة الإعراب(ء، ق، ك، ج، ط، د، ت، ب) فالحروف السبعة ما عدا الهمزة تشترك معها في الانفجار لكن في النص الذي أوقع انتقال الدليل الصوت البارز والمتكرر هو الهمزة وليس حرفا آخر من الحروف الأخرى، لقد ذكر صوت (الباء) مرة و(القاف) مرة و(التاء) مرتين مواليا للهمزة فكان دعما لها فاجتمع في الفعل الواحد صوتان انفجاريان أديا معنى قويا أراده إبراهيم عليه السلام . ورغم ذلك فإن الصوت الذي كان له الحظ الأوفر هو الهمزة، وقد أدى دوره كاملا بتصوير نفسية إبراهيم عليه السلام وحدوث تلك الحبسة في الدليل (الإحياء، والإماتة) ثم الانفجار، انفجار الدليل الثاني (مشرق الشمس) .

المقاطع الصوتية :المقطع الصوتي وحدة صوتية مركبة " فهو أطول من الحرف وأقل من الكلمة المركبة، أو هي مرحلة متوسطة بين الصوت المفرد والكلمة المركبة "

فالمقطع أصغر وحدة صوتية تنبني منها الكلمة، وهي حد وسيط بين الكلمة المركبة[14] والوحدة الصوتية المجردة (الحرف) و" في اللغة العربية يبتدئ المقطع بصامت متحرك ومن ثم امتنع وجود مقاطع ذات صامتين في بداية الكلمة، فلا يمكن في اللغة العربية أن تتوالى الوحدتان (ف، ر) لكونهما صامتين فلا بد من الفصل بينهما بحركة أو مد [15]".

يعتبر المقطع الصوتي من ألطف الوسائل الصوتية التي يرتكز عليها النص القرآني في الانسجام الصوتي بين الآيات " والسبيل في تحديد أنماط المقاطع الواردة في النص، يستند أساسا إلى المقاطع الأكثر بروزا وتميزا من الناحية الصوتية، ولعل الذوق الفني والحس الروحاني كفيلان بالتماس الدور الايقاعي والجمالي لهذه المقاطع[16] فالوحدة المقطعية في النص القرآني تخضع لنظام محكم، وذلك أنها ترد وفقا لمقتضيات السياق ومتطلبات المقام وحتى يتسنى استخراج الطاقة الصوتية من النص لابد من دراسة المقاطع الصوتية لنص المناظرة ومعرفة مدى استعمال النص القرآني للمقاطع الطويلة والقصيرة وأيهما غلب استعماله على الآخر لأن لكل مقطع خصوصية تميزه عن بقية المقاطع .

وبعد هذه النبذة القصيرة عن المقطع وخصائصه يجب تقطيع النص وكتابته كتابة مقطعية حتى تتيسر دراسته .

/أَ_ َل–مْ/تَ–ر–/إ–/ل–ل/ل–ْ/ذي/حاجْ/ج–/إ–بْ/ر ا/هي/م–/في/ر –بْ/ب–/هي/أ–نْ/ا/تا/ه–ل/لا/ه–ل/م–ل/ك–/إ–ذ/قا/ل–/إ–ب/ر ا/هي/م–/ر –/ب–/ي–ل/ل–/ذي/ي–ح/بي/و –/ي–/مي/ت–/قا/ل–/أ/نا/أ–ح/بي/و –/أ–/مي/ت–/قا/ل–/إ–ب/ر ا/هي/م–/ف–/إ–ن/ن–ل/لا/ه–/ي–أ/تي/ب–ش/ش–م/س–/م––/ن–ل/م–ش/ر –/ق–/ف–أ/ت–/ب–/ها/م–/ن–ل/م–غ/ر –/ب–/ف–/ب–/ه–/ت–ل/ل–/ذي/ك–/ف–/ر –/و –ل/لا/ي–ه/د–ل/ق–و/م–ظ–/ظا/ل–/مين /.

بلغ العدد الإجمالي للمقاطع الصوتية للنص 104 مقطعا صوتيا .

بلغ عدد المقاطع القصيرة 42 مقطعا . بلغ عدد المقاطع الطويلة 6 مقطعا .

لقد كثرت المقاطع الطويلة في الجزء الأول من المناظرة وقلت المقاطع القصيرة للدلالة على اليقين والهدوء والنفسية الهادئة لإبراهيم عليه السلام، وزهو نمرود بنفسه واتساع ملكه في (أن أتاه الله الملك) / أ/ تا / لا/ للدلالة على الملك العريض .

والمقطع اللافت للانتباه هو / حاج / فهو مقطع مغرق في الطول مقفل وكأن هذا المقطع لخص المناظرة كلها، فقد تطاول نمروذ على إبراهيم، فادعى الألوهية وزاد في جبروته للتدليل على أنه إله بأن " جاء بمغالطة عن جهل أو غرور في الإحياء والإماتة إذ زعم أنّه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه وإلى برىء فيقتله[17]" ورغم المد الطويل في / حاج / فإن الوقف يأتي مباشرة ويقفل المقطع بعد مد طويل (حا) ب (جيم) ساكنة (ج) ويقفل المقطع ليلقم نمروذ في فمه حجرا ويبهت ويعيد أدراجه القهقري وينقطع المد وتغمد الأنفاس وتسد كل المخارج .

وجاءت المقاطع المقفلة في الجزء الثاني من النص مخالفة لما كانت عليه في الجزء الأول فهذا التحول وانتقال في طبيعة المقاطع، فبعد أن كانت ممتدة أقفلت لأن إبراهيم عليه السلام أرادها أن تكون كذلك أمام الحشود المجتمعة عليه فيدحض دعوى نمروذ وينصر دعوته ويعلي كلمة الله ويسمعها لكل من حضر، فجاءت المقاطع مقفلة محبوسة منفجرة لنقل مدار الحديث عن الإحياء والإماتة اللذين يؤمن بهما إبراهيم عليه السلام وهما ليسا اللذين يؤمن بهما نمروذ، فنظرة نمروذ نظرة كبر، لذلك نقله إبراهيم إلى ما يبهته " فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب "

فهذه الهمزات المحبوسة جاءت بعد الإبهات وانتهت المناظرة، فمقطع / حاج/ لخص المناظرة بامتداده الواسع في جزئه الأول، ثم بسكونه ليسكت الخصم. إن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت ،فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حين يمازج بعضها بعضا ويتألف منها شيء مع شيء فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده[18]." ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه أن أتاه الله الملك إذ

قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت " في الجزء الأول من النص هدوء في السياق، وانسياب في المقاطع، هي امتدادات متتالية كل واثق مما عنده من رصيد .

إننا ننظر ونسمع هذه المناظرة، قال إبراهيم " ربي الذي يحيي ويميت " فيأتيه رد نمروذ " قال أنا أحيي وأميت "، ويعمد إلى رجلين فيقتل أحدهما والآخر يبقيه حيا، والموقف موقف دعوة، إبراهيم عليه السلام نبي مكلف بإظهار الحق فيتغير صوت إبراهيم عليه السلام " فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب " فتتغير المقاطع والنبرات ويتغير شكل الصورة وتتغير نفسيات كل الحاضرين وكأن إبراهيم عليه السلام يأخذ بكل الرقاب ليوجهها وجهة أخرى فينتبه الجميع وتستيقظ النفوس بأن الله رب إبراهيم لا يتصرف فقط في شخصين اثنين فيقتل أحدهما ويعفو عن الآخر ولكنه المتصرف في كل الكون فترى الأعناق كل الأعناق تنظر إلى السماء حيث الشمس هل يستطيع نمورذ أن يأتي بها من المغرب، فيعلم كل من حضر أنه لا يستطيع ولن يستطيع، فيهزؤون ويوقنون أن الله هو رب الأرباب فيبهت نمروذ ويخرص.

أما المقاطع المقفلة فقد كثرت في المرحلة الثانية من المناظرة للدلالة على الانفجار انفجار الحبسات فالهمزة تخرج بالانفجار، إنك يا نمروذ تكذب وتفتري دائما وتدعي أنك إله وحملت الناس على أن يصدقوك فتحكمت في أرزاقهم وحرمت من لا يؤمن بربوبيتك . هناك حبس للحقيقة حبس للرزق وحبس للأنفاس في صدور الذين يعملون الحق ثم يأتي الانفجار بالحقيقة العظيمة وتتولى المقاطع المقفلة (فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) ./إ–نْ/ي–أ/ب–شْ/ش–مْ/ن–لْ/م–شْ/ف–أ/ن–لْ/م–غْ/ إنك لست إلها يا نمروذ لأنك لا تستطيع أن تأتي بالشمس من المغرب ولعل المقطع المركزي في هذا النص هو /ي–أ/ وأيضا / ف–أ / فهذه الهمزة الساكنة في كلا الموضوعين تحمل كل معاني التـــحدي(صامت وحركة قصيرة وهمزة ساكنة) .

وبعض المحدثين يجعلون الهمزة لا هي مهموسة ولا مجهورة، وابن جني يذكر أنها مجهورة إذ يقول " اعلم أن الهمزة حرف مجهور[19]" وطبعا قول ابن جني أسبق. وحكم القدامى على الهمزة بأنها مجهورة يتماشى مع ملاحظاتهم .

أما في العصر الحديث فقد تطورت وسائل الدراسة الصوتية وتبين للعلماء بأنها لا مجهورة ولا مهموسة .

إن " الجهر انحصار في مخرج الحرف"[20]، والمجهور" هو الحرف الذي أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت[21]"

فالصوت الانفجاري[22] يتكون من :

1- حبس 2- إطلاق 3- صوت يتبع الإطلاق.

4- إذا في المرحلة الثانية من المناظرة انتقال صوتي مقطعي انتقال في السياق وفي الحروف وفي المقاطع لأن الاستدلال في المناظرة تغير، ولذلك انتقل إبراهيم من الإحياء والإماتة إلى مشرق الشمس " فليس يخفي أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانتقال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت .. بما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تتناسب ما في النفس من أصولها[23] فلما تغيرت لهجة الحديث، فالمقاطع الصوتية لها الدور البارز في إعطاء مراحل المناظرة ورسم نفسيات المتناظرين.

1- (المرحلة الثالثة) من مراحل المناظرة مرحلة النهايات /ف/ب/ه/ت-ل/ل-/ذي/ك/ف/ر/ نهاية المناظرة رسمتها المقاطع التسعة، سبعة منها قصيرة وواحد مغلق والأخر طويل مغرق في الطول.فالمقاطع القصيرة بينت أن نمرود قصرت أمامه **وتضاءلت قوته وفقد الزهو وذلك الغرور الذي كان يعتريه ويكسوه بأنه يحيي ويميت.**

فلما انتقل الدليل وطولب بتغيير مشرق الشمس بهت، وقصرت أمامه كل الحيل كيف سيحتال على الشمس بفعل يوهم الناس أنه غير مشرقهاقصرت دونه كل الحيل، فخرص وصمت . فالحروف التي اختيرت لرسم هذه الصورة هي :الباء والهاء والتاء " فالباء يتكون بأن يوقف الهواء وقفا تاما وذلك بأن تنطبق الشفتان انطباقا كاملا ويرفع

الحنك اللين فلا يسمح بمرور الهواء إلى الأنف، يضغط الهواء مرة من الزمن وعندما تنفرج الشفتان يندفع الهواء من الفم محدثا صوتا انفجاريا، ويتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق وهكذا يوصف الباء بإيجاز بأنه صامت مجهور شفوي انفجاري " وكأن هذا الصوت قد ألجم نمروذ بتوقف الهواء توقفا تاما، فالتوقف هنا شمل كل منافذ الهواء بأن أغلقت، ثم يفتح الفم منفجرا بالهواء للتعبير عن تنهيدة عميقة يكمل رسمها الهاء الذي هو " صوت النفس الخالص الذي لا يلقي مروره اعتراضا في الفم واللسان يتخذ في نطق الهاء أي موضع من المواضع التي يتخذها في نطق الصوائت ومن ثم فمن المستطاع نطق أنواع من الهاء قدر ما يستطاع نطقه من أنواع (الصوائت) ولذلك أمكن اعتبار أصوات الهاء (صوائت مهموسة) أي أصوات يصحبها همس لا جهر، فالهاء صامت مهموس حنجري احتكاكي "[24] . فالهاء ساعدت على إخراج التنهيدة العميقة من صدر نمروذ . و في همس الهاء وخفائه وضعفه ما يناسب مهانة نمروذ وخفاء قوته وضعف حيلته أمام هذا الدليل الجديد؛ دليل مشرق الشمس .

وأما التاء فتتكون بأن يتوقف مجري الهواء وقفا تاما وذلك أن يلتقي طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ويرفع الحنك اللين فلا يمر الهواء إلى الأنف يضغط الهواء مدة من الزمن ثم ينفصل العضوان انفصالا فجائيا محدثا صوتا انفجاريا [25]"

إن الصوت والمقاطع الصوتية هي الألوان التي تُرسم بها مراحل المناظرة ونفسيات المتناظرين فمجيء الباء بتوقف النفس ثم انفجاره ثم مجيء الهاء يزيد من تمديد الهواء ثم يأتي التاء لتوقف الهواء مرة ليحدث انفجارا آخر لأن الدليل كان أكبر من تصور نمروذ فتوالت عليها الانفجارات التي أصعقته، علما أن التاء لم يأت مرفوقا بحركة قصيرة ولكن التاء جاءت في مقطع مقفل /ت–لْ/ لايصال النتيجة وربطها بكل من كان على شاكلة نمروذ /ت–لْ/ .إن / ت–لْ / المقطع المقفل يتوسط المقاطع وكأنه إعلان أن قصر الحجج والحيل يعترض طريق كل من كفر /ت – لْ/ ثم يأتي مقطع قصير /لـَ/ فصل بين مقطعين مختلفين كل منهما يحمل حقيقة / ت– لْ / صائت + صامت وهو اللام وسكونه في موضعه من الحنك تقرير من الأعلى أن ما حدث لنمروذ يحدث لكل من كان

على شاكلته ثم يأتي المقطع الآخر / ذ–ي/ مقطع طويل صامت + حركة طويلة وكأن هذا الطول في هذا المقطع المتوسطي فهو الآخر قد توسط المقاطع التي أنهت المناظرة وهو يعد النفوس والآذان ويشوقها لأن تسمع من هذا الذي غلب على أمره وبهت وألزم الحجة. ثم تأتي المقاطع القصيرة / ك–/ف–/ر–/ لمهانة الكفر وهذه الصفة أتت بهذه المقاطع القصيرة وكأنها حتمية من الحتميات أن الذي يبهت لن يكون إلا الذي كفر، ولم يلتفت النص القرآني من بدايته إلى نهايته إلى ذكر اسم هذا الذي كفر وإنما اكتفى بأوصافه لما لها علاقة بموضوع المناظرة .

ففي بداية نص المناظرة كانت المقاطع طويلة ممتدة للدلالة على اتساع ملكه واتساع غروره ثم في نهاية المناظرة جاءت المقاطع قصيرة لمهانته وتأتي المقاطع في ختام المناظرة للتقرير الإلهي " والله لا يهدي القوم الظالمين " /و–ل /لا /ي–ه /د–ل /ق– و م–ظ /ظا /ل– /مين /و قد استخدمت المقاطع المقفلة في النص استخداما بديعا حيث نجدها تتتابع تتابعا يجسد هذا الحسم الإلهي والقانون الرباني حيث تشعرنا هذه المقاطع بعظمة المقرر المشرع الذي بيده الهداية وعدمها ومن هذا الذي لا يريد الهداية ؟ فبين الهداية والظلم علاقة عكسية متى وجد الظلم رفعت الهداية . ولعل المقطع اللافت للانتباه هو المقطع الأخير / مين / المغرق في الطول وقد انتهت به وختمت المناظرة على النحو ما بدأت بمقطع شبيه له / حاج / فمقطع / مين / يقابل المقطع الأول / حاج / إن المقطع الأخير مرتبط بالسياق الأخير " والله لا يهدي القوم الظالمين " فالظلم مهما طال فلا بد من نهاية له وإذا كان ظلم نمرود قد طال فان الله قرر أنه (لا يهدي القوم الظالمين) ولذلك يأتي هذا المقطع الأخير بهذه الصورة / مين / وبهذا الإغراق في الطول وينتهي طبعا بسكون، والسكون حسبة في النفس .

فالظلم مهما امتد وطال وتحكم في رقاب الناس فان نهايته توشك أن يأتي فيأتي السكون في آخر المقطع لإيقاف هذا المد وجعل له حدا / مين / .

الفاصلة القرآنية :

عرفها كل من السيوطي[26]والزركشي[27] بأنها هي آخر كلمة الآية كقافية الشعر وقرينة السجع"[28]، وتقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، تسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية فصل بينهما وبين ما بعدها ولم يسموها أسجاعا[29] تنزيها لأن يشبه القرآن بأصوات الطيور لأن السجع صوت الحمام وتسميتها (الفاصلة) أخذت من قوله تعالى: {كتاب فصلت آياته}[فصلت: 3]، والتفصيل توافق وأواخر في حروف الروي أو في الوزن، مما يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفوس[30]" والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم وفي الأخبار التي رويت عن الأعراب الفصحاء الذين فطنوا بسليقتهم إلى غلط بعض القارئين .

فالفاصلة القرآنية في النص (والله لا يهدي القوم الظالمين) كأنها تعقيب على الآية أو تلخيص لمضمونها ولقد تصرف القرآن في هذا تصرفا عجيبا فجاء بالفواصل بعد الآيات كأنها رجع الصدى(31) " وفاصلة النص قد لخصت ما فيه وما قبله يقول تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * ألم تر إلى الذين حآجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنآ أحيي وأميت قال إبراهيم فان الله يأتي الشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين}[البقرة: 255-257] .

فنمروذ واحد من الذين أخرجوا الناس من النور إلى الظلمات وقد فرض ربوبيته على الناس وقال أنا أحيي وأميت، وتحكم في أرزاق الناس فمن لم يعترف له بروبيته لا يعطي رزقه فالآية (والله لا يهدي القوم الظالمين) تذييل مقرر لمضمون الجملة التي قبله " فقد لخصت الفاصلة القرآنية المعنى المراد من الآيات السابقة " فالله لا يعينهم على بلوغ

البغية من الفساد وقيل لا يهديهم إلى المحاجة كما يهدي أنبياءه وأولياءه[32] " قال الزركشي: " اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله فلا بد أن يكون مناسبة للمعنى المذكور أولا وإلا خرج بعض الكلام عن بعض وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن منه ما يظهر ومنه ما يستخرج بالتأمل للبيب[33]" والفاصلة (والله لا يهدي القوم الظالمين) تدل على أن الله "لا يلهمهم حجة ولا برهانا بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد"[34] .

إن المقطع / مين / هو الفاصلة في النص كمقطع صوتي قال الباقلاني: " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني"[35]، وتدل هذه الفاصلة بقوتها الصوتية وبطولها على تحقق القانون الإلهي أن الله لا يهدي القوم الظالمين .

إن المقاطع الصوتية اشتركت في رسم نفسيات المتناظرين بمدودها الطويلة. بداية المناظرة كانت تعبيرا عن الهدوء الذي ساد نفسيتي المتناظرين، ثم جاءت المقاطع المقفلة تعبيرا عن الانتقال الذي حدث في نفسية إبراهيم عليه السلام وفي الدليل وفي الألفاظ ثم جاءت المقاطع قصيرة تنتهي المناظرة ويبهت نمروذ لقصر حجته ومهانة دليله وضعفه. وفي الختام يأتي المقطع المقفل أو تأتي الفاصلة للتقرير الإلهي مميزا بالمقطع الأخير راسما مآل المناظرة " إن نظام القرآن الصوتي باتساقه وائتلافه في حركاته " وسكناته وغناته واتصالاته وسكتاته اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور)"[36]. وإن التأثر الواضح لعدد كبير ممن سمعوا القرآن وقت نزوله وتعبيرهم عن انبهارهم لدليل واضح على أن الإعجاز آنذاك كامن في رصف حروفه وفي إيقاعه العجيب " فهو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزوله ولم تكن عهدت مثله من منثور الكلام سواء أكان مرسلا أم مسجوعا، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر, لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة , لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا حتى قال قائلهم – وهو الوليد بن المغيرة[37] (وما هو بالشعر)[38]، وتأتي هذه الكلمة من رجل ذواق للشعر عليم بخفاياه

وأسراره يقول عن نفسه : " فو الله ما منكم من رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ... والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا "[39].

إن القرآن الكريم أخذ من النثر جلاله وروعته ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية بين إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه (40)"

إن الجمال اللغوي هو تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيبا يقصر دونه كل ترتيب وبيان ذلك أن السماع إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة يشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات بميزان حتى تؤلف من المجموع قالبا لفظيا مدهشا وقشرة سطحية أخاذة، امتزجت فيما بينها الأصوات؛ هذا ينقر وذلك يصفر وهذا يخفي وذاك يظهر وهذا يهمس وذاك يجهر، فخرج القرآن في مجموعة مختلفة مؤتلفة جامعة بين اللين والشدة من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة ولقد وصل الإعجاز اللغوي إلى قمة الإعجاز"[41].

الهوامش:

1–عزيز عدمان، سورة الفرقان، دراسة أسلوبية، ص 62 .

2–صابر عبد الدايم، موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، مكتبة الخليجي القاهرة ط3، 1993، ص28.

3–علال الفاسي، تحريف الدلالة، اللسان العربي، جامعة الدول العربية، الرباط عدد1، جوان1964، ص7 .

4–محمود السعران، علم اللغة مقدمة القارئ العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنش، بيروت، ص153

5–المرجع نفسه والصفحة 156 .

6–ابن حبلي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت ج1، ص 57 .

7– صابر عبد الدايم، موسيقى الشعر، ص 30 .

8–عزيز عدنان، سورة الفرقان، دراسة أسلوبية، ص 58 .

9– محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارىء العربي، ص 169 .

10–المرجع نفسه، ص 170 .

11 – الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتاب، بيروت ط1 1994، ج1، ص 348

12–محمود السعران، علم اللغة، ص 171 .

13– الرافعي (مصطفى صادق)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط9، دار الكتاب العربي، بيروت 1973، ص 215.

14–عبد الرحمان الوجي، الايقاع في الشعر العربي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1989، ص 52 .

15–المرجع نفسه والصفحة نفسها بتصرف .

16–عزيز عدمان، سورة الفرقان، دراسة أسلوبية، ص 75 .

17–ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج3، ص 33 .

18–مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 213–212 .

19–ابن جني، سر صناعة الاعراب، ج1، ص69 .

20–حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا العربية،دار النهضة للطباعة والنشر،بيروت، 1976، ص 14 .

21–ابن جني، المرجع السابق، ص 60 والباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، إعجاز القرآن، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1991، ص 68–69

22–محمود السعران، علم اللغة، ص 153 .

23– مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 215 .

24–محمود السعران، علم اللغة، ص 178 .

25–المرجع نفسه، ص 153 .

26– السيوطي : عبد الرحمان بن أبي بكر بن سابق الدين الخضيري، إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو600 مصنف ت 911ه، الإعلام 301/3.

27–الزركشي : محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي عالم بفقه الشافعية والأصول له تصانيف كثيرة في فنون عدة الاعلام 60/6

28–الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، بيروت، ط2،ج1 ،ص53 والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص124.

29–الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 54 .

30–محمد الحسناوي الفاصلة في القرآن، ط2، المكتب الإسلامي، دار عمار1406ه 1986 م، ص 29 .

31–محمد الحسناوي الفاصلة في القرآن، ص 156 .

32–الطبرسي، مجمع البيان، ج1، ص 312 .

33–الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 78 .

34–– ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج1، ص 557 .

35– الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 85 .

36–الزرقاني (محمد عبد العظيم) مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، مصر، ج2، ص 309 –310 .

37–الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها، الإعلام 122/8، الطبري جامع البيان ج30، ص 96 .

38–الزرقاني، من أهل العرفان، ج2، ص 311 .

39–الطبري، جامع البيان، ج 29، ص 98 .

40–المرجع السابق والصفحة السابقة .

41–الزرقاني، متاهل العرفان، ج2، ص 312.